

الدرس الثالث/ ديوان الأمير عبد القادر

أولاً/التعريف بالشاعر:

ولد(الأمير عبد القادر) يوم الجمعة من سنة(1807) بقرية (القيطنة) غرب مدينة (معسكر) بالغرب الجزائري، وتربى ونشأ في محيط ديني ثقافي، حيث التحق(الأمير) بمدرسة والده (بالقيطنة)، وأن بلغ (الثانية عشر) من عمره حتى أصبح في عداد حفظة القرآن الكريم متمكناً من الحديث النبوي الشريف وأصول الشريعة، وبعد هذا قرر أبوه إيفاده إلى مدينة (وهران) للأخذ من علمائها وتوسيع معارفه.. وبعد سنتين من التحصيل العلمي عاد (الأمير) إلى بلدته القيطنة بمعسكر.

تاقت نفس(محي الدين) والد الأمير إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج(سنة1826) فاصطحبه معه فأدى الشيخ وفاته فريضة الحج، وفي طريقه مرّ بعدة بلدان عربية منها : تونس، ليبيا، مصر، سوريا العراق. تمكن(الأمير) من حضور حلقات الدروس العلمية (بالجامع الأموي) بدمشق، كما زار ضريح القطب الرباني (عبد القادر الجيلالي) ببغداد عاصمة العراق. واجتمعاً هناك بعلماء بغداد فتزود خير الزاد منهم في شتى المجالات، وكانت هذه الرحلة المباركة ذات أثر كبير في حياة (الأمير عبد القادر) الذي أخذ مباشرة بعد عودته في الاعتزال عن الناس والانصراف للعبادة والدراسة منشغلاً بأمهات الكتب التي استقدمها معه. لم يبلث(الأمير و والده) إلا قليلاً حتى بدأت نذر الغزو الفرنسي تلوح في الأفق وما كاد اليوم (الخامس) من شهر (جويلية) يطل حتى كانت عاصمة البلاد تستسلم للغزاة (الفرنسيين)، وأمام هذه الأزمة قرر أصحاب الجاه من أعيان المنطقة اللجوء إلى والد الأمير "محي الدين" ليتولى القيادة، فاعتذر لكبر سنه، وأمام الإصرار اقترح عليهم ابنه(عبد القادر) ومباشرة تمت المبايعة الأولى وكان ذلك (بتاريخ 28 نوفمبر 1832)، ثم أرسل "الأمير" الوفود لبقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا، وقد تمت مبايعته الثانية في (04 فيفري 1833م).

ثانياً/ مقاومة الأمير(جهاده): تقلد(الأمير) زمام السلطة، وهو يدرك أنه ينطلق من الضعف وأنّ عليه أن يكون عند حسن مبايعته، ولن يتأتى له ذلك إلا بإنشاء دولة قوية، إنها ولا شك تتجلى في القوة العسكرية، وهكذا بدأ عهداً جديداً في تنظيم جيش وطني جزائري حديث، وبهذا يعتبر(الأمير عبد القادر) أول من كون جيشاً وطنياً ومنظماً وموحداً جزائرياً، وبهذا يعتبر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة. ودخل الميدان وبدأت تتوالى الانتصارات خاصة ما بين سنتي (1832-1834م) مما اضطر فرنسا الاعتراف بدولته، وعقدت معه معاهدة عرفت باسم معاهدة (دي ميشال سنة 1834م). فاعتبرها المؤرخون انتصاراً

سياسيًا وديبلوماسيًا للأمير. ومن أشهر معاركه، معركة (السيق) ومعركة (المقطع) الشهيرة سنة (1835م) والتي أحدثت هزة في فرنسا ذاتها حيث أدت إلى تغييرات كبيرة في الجيش. فطلبت فرنسا الرسمية من الجنرال "بيجو" السفاح أن يسعى لعقد معاهدة، وكللت المساعي والمفاوضات بتوقيع معاهدة (تافنا) الشهيرة سنة (1838)، وأضفت هذه المعاهدة على "إمارة الأمير" صفة الدولة الرسمية، وفي وقت وجيز سارعت فرنسا وكعادتها لنقض المعاهدة، فبدأ (الأمير) في مرحلة جديدة من الجهاد، واستمرت المعارك دون هوادة ولا انقطاع حتى سقطت عاصمة الأمير (الزمالة) المتقلة سنة (1843م)، ورغم ذلك بقي الأمير في ميدان المعارك يكرُّ ويفرُّ إلى أن استسلم بعد محاصرته ومن معه وكان ذلك في يوم (23 سبتمبر 1847).

❖ **الأمير الأسير:** ظل الأمير الأسير متنقلاً بين السجون الفرنسية ليستقر به المقام الأخير في سجن قلعة "أنبواز" وقد أُلّف في هذه الفترة العصبية في سجنه كتابه (المقراض الحاد لقطع لسان منقوص دين الإسلام بالباطل والإلحاد)، كما نظم كثيراً من قصائده الشعرية في الشكوى والحنين. غادر "الأمير" فرنسا بعد اطلاق سراحه من طرف "لويس نابليون" في (ديسمبر 1854م) قاصداً الشرق وهو من شروط الاستسلام، لكن فرنسا لم تف بوعدها حيث قضى في سجونها حوالي خمس سنوات (1847-1852). وصل "الأمير عبد القادر" إلى تركيا في (1853م)، وقد أُلّف في هذه الفترة من إقامته بتركيا كتاب (ذكرى الغافل وتنبية العاقل)، ثم غادر تركيا وولى وجهته شطر (دمشق) سوريا، وفي هذه الفترة استطاع إن يؤلف موسوعته الجامعة، كتاب: (المواقف في التصوف والوعظ والارشاد).

❖ **وفاة الأمير عبد القادر:** في ليلة السبت (24 ماي 1883م) لَبَّى (الأمير) نداء ربه بنفس راضية مرضية، وذلك بقصره في قرية (دمر) بضاحية (دمشق) عن عمر يناهز (76 سنة) ودفن بجوار الشيخ الأكبر الصوفي (محي الدين بن عربي) داخل القبة الخضراء تنفيذاً لوصيته، وفي عام (1965م) نقل جثمانه إلى الجزائر، ودفن بمربع الشهداء بمقبرة العاليا بالعاصمة الجزائرية (الجزائر).

ثانياً/ الأمير عبد القادر أديباً: ولعل أفضل ما جادت به شاعرية (الأمير) هو ذلك الذي تناول فيه موضوعات (الفخر والحماسة) فشعره في الفخر، يذكرك (بعنتر بن شداد) و(عمر بن كلثوم) و(المتنبي) وغيرهم، وفخره هو حديث عن هواجس وأفكار، لا تصنعُ فيها ولا تكلفُ، فالفخر منه إليه وهو أولى به (فالبطولة جزء من شخصيته لذلك كان شعره صادقاً كل الصدق). ومن هذا المنطق أراد (الأمير) أن يعيد إلى الأذهان في الجزائر تلك الصورة للفروسية العربية الأصيلة في وقت كانت فيه عاجزة عجز المرحلة التي تمر بها البلاد. و(الأمير عبد القادر) في فخره ينقلك إلى واقع حقيقي، فهو لم يتخيل

معاركه وحروبه تخيلاً كما يصورها بعض الشعراء، وإنما يصف كل ما رآه وماعناه وصف خبير. فقد قضى أيامه، وأفنى زهرة شبابه بين قعقة السلاح وصهيل الخيل وغبار المعارك مع أهله وجنده الأشاوس، تلمس في فخره أثر (عنتر) و(المتبي).. تعنى مثلهما بالشجاعة والبأس والبطش بالعدو، ولا غرو في ذلك فقد عرف المعارك ومارسها ممارسة الجندي والقائد.

تسائلني أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
أميراً إذا ما كان جيشي مقبلاً وموقد نار الحرب، إذا لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل، إني لأول وإن جال أصحابي فإني لها تال
أدافع عنهم ما يخافون من ردى فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي.

وفخر الأمير (الإرادي المكتسب) هو اعتداد بنفسه وضرب من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الأمام بشرط أن يصاحب ذلك نوع من الحكمة التي تكيف الإنسان لتجعل منه عظيمًا بحق يستحق الزعامة بنوعيتها الحسي والمعنوي. وإلى جانب فخره الإرادي المكتسب، يظهر عنده (الفخر الفطري الطبيعي) الذي ينبع أساسًا من نسبه الشريف الذي يرجع للدوحة الطاهرة، آل البيت عليهم رضوان الله، وإلى جده الأجد الأكرم "سيدنا محمد" عليه الصلاة والسلام، فأمسى لهذا النسب ضرورة حتمية يفرضها المقام:

أبونا رسول الله خير الورى طرًا فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرًا
ولنا غدا دينًا وفرضًا محتمًا على كل ذي لبّ به يأمن الغدر

فهذا الإرث النفيس الذي ورثه الشاعر سيبقى شامخًا دائمًا لا يزول بزوال الرجال، فيه مجد العرب وفخر الإسلام الذي أتى به (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم، فرفع من قريش مكانًا عاليًا، فارتبط ذكر هذا النسب مع حياة المسلم ارتباطًا وثيقًا، ومن من المسلمين لا يذكر هذا النسب وأهل البيت وهو ساجد لرب العالمين، بقوله (اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا):

ورثنا سؤددا للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ومن فوق ذا طابت فعال

وكان لنا- دوام الدهر- ذكر
بذا نطق الكتاب ولا يزال

وهذا النسب النبوي الأجدد، هو في حالة ديمومة مستمرة، يتوارثه الأبناء عن الأجداد فهو سلسلة ذات حلقات كل حلقة تمثل عهدا حافلا بالأعمال الجليلة والأخلاق الفاضلة والمواقف النبيلة، فأتباع هذه الدوحة الطاهرة هم القدوة والنبراس، يهتدي الناس بنوره في حياتهم أخلاقاً ومعاملة وسلوكاً:

ومنا لم يزل في كل عصر
رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم
بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريا
حماة الدين، دأبهم النضال.

2/ الشعر الصوفي : يعتبر (الأمير) التصوف، هو جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر من غير سبيل الله للوصول إلى غاية سامية وهدف جليل باعتبار >> أن الصوفية هم سادات طوائف المسلمين.<< إن (الأمير) يعرض للحديث عن (الخمير) التي كثيرا ما تغنى بها الصوفيون وسكروا بها، فالخمير عندهم المقصود بها هنا " الخمر الإلهي" الذي لم تعتصره يد البشر، لا يقصدون (الخمير) الذي يذهب العقل ويطيّر الفؤاد ويذهل الإنسان، إنما سكر هؤلاء العشاق من وقدة الحب، وحرقة الجوى ولذة الوصال والقرب من الله العلي القهار، ولذلك نرى شاعرنا الصوفي يفيض في وصف أثرها الحسي والروحي، يقول الأمير عبد القادر :

ويشرب كأسا صرفة من مدامة
فيا حبذا الكأس ويا حبذا خمير
فلا غول فيها، لا، ولا عنها نزفة
وليس لها برد وليس لها حرّ
معتقة من قبل كسرى مصونة
وما ضمها درن ولا نالها عصر.

كما نظم الأمير في (الخميرة الإلهية)، فقد تطرق لموضوع (الغزل) أو (الحب الإلهي)، سالگا سبل الأولين من القوم الذين تناولوا هذا الغزل والحنين والوجد والبقاء والفناء، وقد تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحى بالفكرة ولا يصرح بها، وهو الأساس الذي يرتكز عليه الأدب الصوفي في كل فنونه. وما دام (حب الله) قد ملأ فؤاد شاعرنا، وذاق حلاوته وطعمه، وملاك فؤاده الهوى وأسر قلبه، فكلما رام البعاد اشتعلت نيران الشوق والحنين في أحشائه، فازداد هيأماً، ويطلب المزيد من الحب واللقاء والوصول لأنه

به يحيا وفيه يموت، فكلما هبت ريح الحبيب واشتم نسائمه، ازدادت نيران القلب تأججًا ودعوة إلى لقاء جديد، إذ يقول الأمير في قصيدة (أنا الحب والمحبوب والحب جملة):

عن الحب ما لي كلما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا
لواعج لو أن البحار جميعها صببُن لكان الحر أضعاف ما كانا
تتج إذا ما نجدُ هبّ نسيمها وتذكوا بأرواح تتواوح ألوانا
فلو أن ماء الأرض طرًا شربته لما نالني ريّ ولازلت ضمّانا.

والقصيدة طويلة حيث يصور فيها - بصورة عامة - ما يعترض سالك هذا السبيل من آلام وأشواق، وما يكابده من عذاب وحرقة وتطلع للحبيب، والرجاء في الوصال باعتباره عنوان التصوف، و مهما يكن من أمر فإننا نعتقد أنّ الشاعر كان يلتمس هذه السبل باعتبارها تؤدي إلى الإيمان والمحبة والمعرفة والتوحيد، وإن تعددت طرقها في الوصول إلى الحقيقة المجردة، حقيقة معرفة العبد لخالقه، والإذعان له بالطاعة، والإقرار بالوحدانية والربوبية، وما تركه (الأمير) من قصائد صوفية، كان أبعد فيها عن التكلف والتعسف في القول، فهي تعبير عن إيمان قوي وعميق بالمولى تبارك وتعالى والرضا بالقدر خيره وشره.

3/ غرض الوصف : ولعل أهم قصائده في هذا الجانب قصيدته الشهيرة (ما في البداوة عيب) وتأتي مناسبتها في أن الأمير كان أسيرا في سجن (أمبواز)، وكان موضع التكريم من علماء فرنسا، ومفكريها يراسلونه ويراسلهم، فبعث إليه بعض أمرائهم يسألونه رأيه فيما اختلفوا فيه: هل البدو أفضل أم الحضر؟ فردّ عليهم بقصيدة انتقم فيها لنفسه وللبداوة، وما في المدينة من نقائص وكأنّه يرى (رؤيا أبي العلاء) أن فقدان العز في الحضر. استهل الأمير (رائيته) بتوجيه لوم وعتاب رقيق لأولئك الذين ينتصرون لأهل الحضر ويقفون إلى جانبهم، ويلومون سكان البوادي لبساطة، ولكن عذر هؤلاء - دعاة المدينة - أنّهم لا يعرفون ما في البادية من مزايا، ومناقب، ويوم تتاح لهم فرصة العيش فيها، ويرون بأعينهم هذه الحياة الهانئة البسيطة.. فلا شك حينذاك أنهم سينتصرون لأنفسهم ولأهل البادية، ويكون بذلك حكمهم أساسه العدل والقسط:

يا عاذرًا لإمرئ قد هام في الحضر وعاذلاً لمحِب البدو والفقير
لا تَدُمَمَنَّ بيوتًا خفّ حملها وتمدحَنَّ بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو، تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيًا بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جُلتَ في روضة قد راق منظرها بكل لون جميل شيق عطر
رأيت في كل وجه من بسائطها سِرْبًا من الوحش يرعى أطيب الشجر
فَيَا لها من وقفة لم تبق من حَزَن في قلب مضنى ولا كدا لذي ضجر

ثم ينقلنا (الأمير) في هذا الوصف إلى لوحة فنية جميلة من حياة البادية، وهي صورة (الحل والترحال) أساس حياة العرب في صحرائهم، فهم دومًا في تنقل، لا يستقرون في مكان واحد يسعون وراء الماء والمرعى.. يتخذون من الإبل مطية.. والقصيدة طويلة، يعرض فيها الأمير كل مزايا ومناقب البادية التي لا تتوفر في المدينة.

إنّ (شعر) الأمير عبد القادر كان امتدادا للشعر العربي الحديث، وقد تناول الأمير كل الأغراض الشعرية التي كانت معروفة في عصره كالوصف والمدح والغزل.. وما يلاحظ خلو ديوان الأمير من الهجاء وربما يعود ذلك إلى تربيته الإسلامية وأخلاقه السامية التي نأت به عن القذف والشتم، والأمر نفسه بالنسبة لغرض الرثاء، ذلك لأنّ الأمير قضى زهرة شبابه على سهوات الخيل وتجرع المرارة والمحن فكان يعتبر الموت في سبيل المبدأ والشرف والدين حياة ما بعدها حياة، فلا يستحق صاحبها أن يرثى ولذلك خلا شعره من صور المأساة بقتلاها وجرحاها.